حول انهيار فرنسا

لأستاذ عربي كبير

حينما انهارت فرنسا أحدث انهيارها الفاجئ هزة أرضية عالمية ، دهش لها من دهش ، وابتهج بها من ابتهج ، وبكى منها من بكى . وكان الظن بكتاب العرب يومئذ وهم الذين اكتووا طويلا بنار الاستعمار الفرنسي أن يتنفسوا الصعداء بزوال هذا الكابوس ، ولكنهم انقادوا للنوازع الانسانية والأدبية فيهم فكتبوا يرثون فرنسا ويرثون لها ويعطفون عليها . إلا هذا الكاتب المفكر الكبير فانه عارض هذه النزعة وعالج الموضوع على ضوء الحقائق المجردة والوقائع الثابتة . ولم تتهيأ لنا الفرصة يومئذ لنشر هذه الآراء القيمة ، فننشرها اليوم بمناسبة المأساة السورية فإنها جمرة متقدة من تلك النار ، وأثر سيء من آثار ذلك الانهيار ..

... أخذ عدد غير قليل من الكتاب العرب يتبارون فى نشر المقالات ونظم الأشعار ، حول هذا الانهيار ، وكان معظم ما كتب فى هذا الموضوع (عاطفياً) بكل معنى الكلمة . كان أكثرها مراثى تندب حظ فرنسا ، وتظهر أسفاً شديداً ، وحزناً عميقاً على الكارثة التى حلت بها ؛ وكان بعضها يغالى فى الرثاء ، إلى أن يبلغ به درجة البكاء ...

غير أن هذه المراثى قوبلت بمعارضة شديدة ، فقد حمل عليها بعض الكتاب حملات عنيفة وقالوا : كيف يجوز لكاتب عربى أن يبكى على فرنسا وينسى ما فعلته بالقسم الأعظم من البلاد العربية ؟ كيف يجوز لمفكر عربى أن يرثى النكبة التى حلت بفرنسا وهو يعلم أنها كانت من أهم العوامل التى أزلت أكبر النكبات بالأمة العربية وبخاصة بعد الحرب العالمية ؟

احتدم الجدال بين الفريقين ؛ وحاول كل فريق أن يبرر حسن عواطفه بمقالات حارة ، أودع فيها كل ما أوتى من قوة البلاغة والبيان ...

أنا من الذين يعتقدون أن الكتابات العاطفية تعبر عن نفسية كتابها الشخصية وخوالجهم الذاتية ، فلا تتحمل المناقشة مناقشة علمية ...غير أن أصحاب المراثى لم يكتفوا بإظهار عواطفهم وتثبيتها ، بل أخذوا يدافعون عنها ويدعون إليها ، وحاولوا أن يدعموها ببعض الآراء والنظريات السياسية والاجتماعية ..

فإذا جازلنا أن نسكت تجاه « العواطف الشخصية » ، فلا يجوز لنا أن نلتزم مثل هذا السكوت تجاه الآراء والنظريات التى صارت تنشر لتبرير تلك العواطف ...

لقد قال البعض « يجب أن نميز بين فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية المستعمرة » ، كما قال آخرون : « يجب علينا أن نفرق بين عمل الساسة وعمل الأمة كلها ، فلا يجوز أن نعتبر الشعب الفرنسى مسؤولا عن أعمال حكامه ..

فلننعم النظر فى الآراء التى تتضمنها مثل هذه الأقوال . . ولنفكر جيداً : هل يمكن التمييز بين فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية المستعمرة تمييزاً حقيقياً ؟

أنا لا أقول بذلك أبداً . . . لأن الأدب الفرنسى نفسه لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص . بل بعكس ذلك انبرى لخدمة تلك السياسة

---

* فى ج ١٠ ص ١٣٩

أتطلب الفصاحة من الغنم ، والصباحة من الغثم ؟

قلت : من الأغم . والغمم كما جاء فى الصحاح أن يسيل الشعر حتى تضيق الجبهة أو القفا ، ورجل أغم ، وجبهة غماء ، قال هدبة بن الخشرم :

فلا تنكحى إن فرق الدهر بيننا ... أغم القفا والوجه ليس بأزعا

والأزع الذى ينحسر شعر مقدم رأسه مما فوق الجبين كما فى النهاية . وفى اللسان : وامرأة زعاء ، وقيل : لا يقال زعاء ، ولكن يقال زعراء . وفى صفة على (رضى الله عنه) البطين الأزع[1] . والعرب تحب النزع وتتيمن بالأزع ، وتذم الغمم ، وتتشاءم بالأغم ، وتزعم أن الأغم القفا والجبين لا يكون إلا لئيما ، ومنه قول هدبة : البيت . وفى (الكامل) : الغمم كثرة شعر الوجه والقفا ، وأورد البيت ، ثم قال : والعرب تكره الغمم .

---

(١) وقيل معناه الأزع من الشرك الداهية البطن من العلم والايمان (النهاية) .

بكل الوسائل الممكنة . وقد كتب الأدباء عدداً لا يحصى من المقالات والخطب والأشعار والقصص والروايات التي تمجّد الاستعمار وتزينه في النفوس ، وتحثُّ على الاستعمار وتحبّبه إلى القلوب . .

إن دلائل ذلك تظهر للعيان من خلال جلسات الأكاديمية الفرنسية أيضا . لأن هذه الندوة الأدبية العليا قد حرصت كل الحرص على أن تختار بعض أعضائها من بين رجال السياسة والجيش، كما اختارتهم أحياناً من بين صناديد الاستعمار . وهؤلاء لم يتجردوا من نزعاتهم السياسية والاستعمارية عند دخولهم قاعة اجتماع تلك الندوة حتى إنهم لم يترددوا أحياناً في اتخاذ تلك القاعة منبراً لإسماع آرائهم الاستعمارية في خطب أدبية رائعة .

ولعل أقرب وأوضح الأدلة على ذلك كان انتخاب الماريشال (ليوتي) عضواً في الأكاديمية المذكورة . ومن المعلوم أن هذا الماريشال يعتبر من أكبر رجال الاستعمار ، فقد لقبه الفرنسيون بلقب « الإفريقي » — تقليدا لما فعله الرومان في القرون الأولى ، عندما خلعوا مثل هذا اللقب على (اسجسيون) بعد تمكنه من تدمير قرطاجنة . إن الأكاديمية الفرنسية انتخبت الماريشال ليوتي عضواً بها ، أفتدرون ماذا كان موضوع « خطبة القبول » التي افتتح حياته الأكاديمية وفقاً لتقاليد الندوة الأدبية المذكورة ؟... كان موضوع الخطبة « الاستعمار » ... اقرأوا الخطبة المذكورة تجدوها قطعة أدبية رائعة في مدح الاستعمار وتمجيده ... إنها تشرح فوائد الاستعمار المادية والمعنوية بأسلوب حار بليغ ، وتدعو إلى «الإيمان» بضرورته لحياة فرنسا !

« لأن الاستعمار — مصدر هام للقوة والثروة ، ومنبع لا ينضب للجيش ، وساحة تدريب وتكوين للقواد ... ولأن الأمم المحرومة من المستعمرات تكون جانحة إلى الركود والجمود الروحي . . . »

أعتقد أن هذه الخطبة من أبرز الأمثلة والأدلة على تداخل وتشابك الأدب والاستعمار؛ فلا يجوز لنا إذن أن نقول بوجوب التمييز بين «فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية الاستعمارية » بوجه من الوجوه .

وأما إذا قيل : « إن القصد من التميز المبحوث عنه ، هو (تقدير الأدب الفرنسي) في حد ذاته ، بقطع النظر عن السياسة الفرنسية والاستعمار الفرنسي » ، فأنا أسلم بصحة هـذا الرأي ، غير أني أقول بلا تردد : إذا كان الأمر كذلك ، فلا يبقى داع ولا مبرر للرثاء . . . لأن « الأدب الفرنسي » ظل خارجاً عن حدود النكبات ؛ فإن النكبة التي نحن بصددها حلت بالدولة الفرنسية والجيش الفرنسي لا بالأدب الفرنسي ... لأن انهيار الجيش لا يستوجب انهيار الأدب ، والاندحار في ميادين الحرب والسياسة لا يستلزم الاندحار في ميادين الأدب والثقافة ..

إنني أستطيع أن أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل فأقول : « إن مثل هذه النكبات قد لا تخلو من الفائدة إلى الأدب ، لأنها قد تكون منبتاً خصباً للانتاج الأدبي . فإن الآلام والأتراح تكون — بوجه عام — أفعل من الأفراح في إثارة العواطف ، وتوليد الأدب الرائع ...

وعلى كل حال فإن نظرية التميز بين فرنسا الأدبية وفرنسا الاستعمارية لا تستند على أساس قويم من هذه الوجهة أيضاً .

وأما القول في وجوب التفريق بين الشعب والحكام وعدم اعتبار الشعب مسؤولا عن أعمال الحكام ... فهو غريب جدا ، ولا سيما بالنسبة إلى فرنسا التي تفخر وتباهي بالديمقراطية والجمهورية والإدارة الشعبية ...

أنا لا أنكر أن الحكام قد يستطيعون في بعض الأحوال أن يجروا شعبهم إلى الاتجاه الذي يريدونه ؛ غير أني أعتقد أن ذلك الاتجاه لا يمكن أن يستمر طويلا إذا لم يأت موافقاً لنزعات الشعب ويجد هوى في أمياله النفسية...

ومن المعلوم أن « الاستعمار » لم يكن من الحوادث العارضة في تاريخ فرنسا ... بل ان تاريخ الاستعمار هناك طويل وطويل جدا ؛ حتى ان بدء الاستعمار الفرنسي للبلاد العربية نفسها يعود إلى أكثر من قرن . فإن فرنسا بدأت حملتها على الجزائر سنة ١٨٣٠ وقد مضى على ذلك التاريخ قرن كامل مع عقد من السنين ... غيّرت فرنسا « نظام حكمها » — خلال هذه المدة أربع مرات بل خمسا ، انتقلت من الملكية إلى الجمهورية ، فالامبراطورية ، ثم عادت إلى الجمهورية . والآن أخذت تجرب شكلاً جديداً من نظام الحكم ... مع هذا لم تنحرف عن سلوكها الاستعماري طوال هذه المدة وخلال هذه النظم

المختلفة . فإنها أتمت استعمارها للجزائر بين شتى الانقلابات السياسية ، واستولت على تونس سنة ٨٨٢ ، وبسطت حمايتها على مراكش سنة ١٩١١ ، واستولت على سورية ، وأتمت استعمارها للمغرب الأقصى بعد الحرب العالمية ... وقد توالى خلال هذه المدة الطويلة عدة أجيال ، ونشأ وتنازع فى غضونها عشرات الأحزاب ، وتولى الأمر فيها عشرات وعشرات من الحكومات المتضاربة النزعات ... ومع كل هذا ، لقد ظل « العمل الاستعمارى » هو هو ، دون أن يتوقف أو يتغير من جراء تبدل نظم الحكم ، أو تعاقب الحكومات وتوالى الأجيال ... فلا يجوز لنا أن نسلم بأن « الاستعمار الفرنسى » من أعمال حكام فرنسا ، فلا يعتبر الشعب الفرنسى مسؤولا عنه ... »

* * *

هذا ، ومما يسترعى النظر ، أن معظم ما كتب فى رثاء فرنسا وفى الدفاع عن ذلك الرثاء — فى اللغة العربية — يُظهر آثار افتتان غريب بها ومغالاة شديدة فى اعتبارها أرقى شعوب الأرض على الإطلاق ...

فقد قال أحد الكتاب « إن المساواة فى العدل الاجتماعى لم تكد تتحقق فى أمة من الأمم فى كل أدوار التاريخ إلاّ فى فرنسا » ... كما قال كاتب آخر : « لم يثر ثائر على الاستعمار فى مشرق أو مغرب إلا وفى روحه جذوة من النار التى أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب » .

وقال أحدهم « لا أعرف فرداً قد ربى فيه الوازع الشخصى بمثل ما ربى فى الرجل الفرنسى » .

وقد صاح أحد الكتاب قائلاً : « إن قوة الألمان فيض من قوتك ياباريس » كما خلع كاتب آخر على فرنسا سلسلة نعوت خارقة مثل « مبعث النور والحرية ومهد الإختراعات »

إن معظم هذه المدعيات تخالف الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما ان ما تبقى منها ينطوى على مغالاة صارخة ...

فإن التاريخ يذكر لنا عشرات الثورات التى قامت قبل ثورة باريس المشهورة . والفرنسيون أنفسهم يعترفون بأنهم تأخروا كثيراً فى تحقيق المساواة فى العدل الاجتماعى . كما أن معظم مفكريهم يشكون بمرارة ضعف الوازع الشخصى فى نفوس مواطنيهم ، ويحدون بصراحة بعض الأمم من جراء الوازع الشخصى المبحوث عنه ...

واما نعت فرنسا « ببعث النور ومهد الاختراعات » واعتبار الفرنسيين أرقى شعوب الأرض على الإطلاق ، فإن كان ذلك من الدعاوى التى كان يمكن الدفاع عنها فى دور من أدوار التاريخ ، فقد أصبح من القضايا التى لا يمكن التسليم بها فى الدور الذى نعيش فيه الآن ...

لقد فنّد الفيلسوف الإنكليزى الشهير « هربرت سبنسر » الأسطورة القائلة « بتفوّق الفرنسيين » على جميع شعوب الأرض فى « المدخل » الذى كتبه لعلم الاجتماع ، قبل نحو سبعة عقود من السنين ، وانتقد انتقاداً لاذعاً المبالغات المفرطة التى كانت تلقب فرنسا بلقب « محررة الأمم » ، والتى كانت تدعى بأن اندراس باريس يعنى انطفاء مشعل المدنية .

انا لا أشك فى أن مثل هذه المبالغات التى استثارت انتقادات هذا الفيلسوف عندئذ ، قد أصبحت أشد بعداً عن الحقيقة الآن ، وأجدر بالانتقاد الشديد فى هذا الزمان .

لا أنكر ان فرنسا كانت أرقى بلاد العالم فى دور من أدوار التاريخ ؛ هذا الدور هو العهد الذى يمتد بين أواسط القرن السابع عشر وأواخر الثامن عشر ، وأعرف أن البعض من المفكرين الذين استعرضوا تاريخ أوروبا استعراضاً فلسفياً ، ولاحظوا تتابع دور الاقطاع ودور الانبعاث « قد سموا الدور الذى نحن بصدده باسم « الدور الفرنسى » ؛ غير أننى أعرف أيضاً أن ذلك الدور قد مضى وانطفى فى أغوار التاريخ منذ مدة طويلة ؛ لأن حالة أوربا وحالة العالم تبدلت تبدلاً هائلاً خلال القرن التاسع عشر ، فلم تستطع فرنسا أن تحتفظ بمنزلتها السابقة بين هذه التبدلات والتقلبات العالمية الهائلة . أنا لا أود أن أقول : ان فرنسا تأخرت منذ ذلك الحين ؛ غير إننى أقول أن أمماً ودولاً أخرى قامت ونهضت وتقدمت بسرعة هائلة منذ ذلك العهد فأخذت تتسابق مع فرنسا تسابقاً عنيفاً فى جميع ميادين التقدم والرقى ... وقد لحقتها فى معظم الميادين ، بل سبقتها فى بعض الميادين . فقد خرجت الحضارة العصرية من سيادة فرنسا المعنوية منذ مدة غير قصيرة ، ففقدت فرنسا بذلك مكانتها السابقة بصورة قطعية .